

## مبارزة

معن ابو طالب

تأتيني في الركعة الثانية. يفتح صوتها صلاتي. يرفض الانتظار والتأجيل رفضاً قاطعاً. تمتزج كلماتها بكلماتي، أنغامها بأياتي، جنتها بجحيمي، وتفوز هي، دائماً.

أذكر بوضوح أول مرة سمعتها. في المقهى، على الأرض، بجانب أرحيلة والدي وشبشه الذي يتأرجح على طرف قدمه، جاهزاً للانطلاق إلى وجهي. بدأ صوتها يهدر من المذيع. صمت الجميع. كان يستمر الصمت حتى بعد أن تنتهي. خشوع تام، لا يكسره إلا صياح طفل أو مجنون. علاقتنا كانت بسيطة في بادئ الأمر. كنت دوماً أسعى لسماعها أينما استطعت. كانت دوماً تجربة طارئة. ضربة حظ، مثل طبق كنافة متقن وساخن. حفظت أغانيها دون أن تسكنني. مرت السنين وكانت دوماً تجربة جميلة. سمعتها وسمعت غيرها، صليت، وعملت، وكان كل أمر في مكانه.

بعد عدة أعوام، وبعد أن أنهيت دراستي وسكنت وحدي وحصلت على راتب ضئيل، اشترت مشغل اسطوانات. كنت قادراً على شراء اسطوانة واحدة، واخترت اسطوانة لها. كانت اسطوانة لم أسمعها من قبل، وأذكر أن أملي خاب أول مرة سمعتها. أذكر أنني شعرت بالخدلان وأنتني خرجت من الدار غاضباً. أنني صفقت الباب خلفي كأن هناك من يسكن معي.

مرت أيام قبل أن أجرب الاسطوانة مرة أخرى. لا فائدة. لم أستمتع بها، ولكن لسبب ما، شعرت بالحاجة لسماعها مرة أخرى، وأخرى وأخرى. استمعت لها وأنا في الحمام، وأنا ألبس ملابس، أو

أغسل الصحون، أو عند تناول وجبة العشاء. بدأت أعرف تفاصيل الاسطوانة قبل أن أحبها. أعرف متى ترتفع ومتى تدنو، متى تشب ومتى تهدأ. دخلت الأغاني صميمي. صرت أجد نفسي أتمتع مع هذا الجزء أو ذلك. صرت أشعر بحرقة عند مقاطع معينة. لم تعجبني الاسطوانة، بل عشقتها فجأة. تجاوزت مرحلة المتعة. أصبحت أنهض من السرير صباحاً راضياً لمشغل الاسطوانات. أركض عائداً من العمل لأستمع إليها. ألحانها لا تفارق ذهني حتى تلتقي بمسامعي. جنة وجحيم هي في آن واحد. حفظت كل تفصيلة صغيرة وكبيرة على الاسطوانة. سمعتها آلاف المرات. ثم وضعتها جانباً. اكتشفت موسيقات جديدة. الجاز ونجاة الصغيرة والكلاسيكيات ومزيداً من أسطواناتها. ولكن تلك الاسطوانة، تجلس هناك، تشدني إليها. تأمرني. كان هذا منذ سنين طويلة. وأنا الآن يا بني رجل متقدم في العمر، تهمني صلاتي ولا أكرث لمتع تزول قريباً. أعيش قرب أبنائي وأحفادي. أحاول أن أبقى خارج طريقهم، لا أثقل عليهم. مشاويري إلى المسجد وإلى السوق. (يشير إلى الأكياس بحوزته) صحتي جيدة، ولكن ذهني معذب.

أصل إلى المسجد، أتلو الأدعية، أسلم على أصدقائي، أحيي الشيوخ، ثم تبدأ المعركة. أحياناً تبدأ فوراً، أحياناً في الركعة الثانية أو الثالثة. ولكنها دوماً تبدأ. يدخل صوتها مجرداً إلى روحي. لا آلات ولا إيقاع. يدخل عبداً مزجراً لا يقف في طريقه شيء. أحاول أن أركز، أن أبقى ذهني في الآيات، ولكن لا فائدة. أسمع صوتها بكل وضوح، كأنها الاسطوانة أمامي. لا بل كأنها هي أمامي، على المسرح، تغلوني قليلاً ولا تراني، تخاطب الملايين. تأسرهم لدقائق أو ساعات. أتساءل أحياناً إن خطر ببالها أبداً أنها ستسكن، بل تقتحم، عقل شخص ما مثلي. إن أدركت قوة ما تجلبه إلى الدنيا.

تدخل الآلات شيئاً فشيئاً وتخفي الآيات واحدة واحدة. أقاوم وأتمسك بآياتي، أرفع صوتي بالتلاوة حتى لو كانت صلاة سرية، أعيد نفس الآية مرات ومرات مركزاً في كل كلمة، ولكن صوتها جبار. أحياناً أقاوم ثواني، أحياناً دقائق، بالنسبة لي هي دهور. كلما قاومت أكثر كانت هزيمتي أكثر عذوبة. كلما كانت جنتي أوضح وأبعد. أحياناً تكون الهزيمة مريرة لدرجة أن عيني تملؤها الدموع وجسدي يرتج. أشعر بنشوة لا مكان لها في دار عبادة. أبكي. يظن أصدقائي أنني حجزت مكاني في الجنة، بينما أنا في الجنة الآن، وجحيمي على بعد أيام قليلة.

ملعون ذلك اليوم عندما سمعتها. أستشيط غضباً على أبي، أما كان عليه أن يحميني؟ أما كان عليه أن يبقيني في المنزل، أعارك أخي الصغير وأكسر بعض الأواني؟ أكان عليه أن يعرفني على هذا المخدر، أن يقلب حياتي على رأسها، أن يدمر علاقتي بري؟ سوف أنقلب عليها يوماً. سوف أخرجها من رأسي ومن عالمي إلى الأبد، وأتمنى أن يكون بقي وقت كافٍ لي لصلوات أكفر بها عن ذنوبي.

كيف ألقى ربي بهذا الحال؟ كيف أشرح لملائكة الحساب أن لقاءها أعذب من لقاء الرب، أن كلماتها محفورة في صميمي أكثر من كلماته؟ ترى حينما تحين الساعة، أتمنحي صفاء الذهن لأتشهد قبل الموت، أم تغزو تلك اللحظة أيضاً؟ هل تغزو حياتي الآخرة أيضاً بصوتها؟ هل تأتي بيني وبين ربي في لحظة الحسم؟ إنها لفكرة تجعلني أرعد خوفاً، وأكثر ما يخيفني أن هناك في داخلي، في أعماق نفسي، ما يريد ذلك. هناك في داخلي ما يريد لي أن تكون سكرات موتي معها، أن تغني لي موتي، أن ترافقني، أن تأخذ بيدي وتسلمني للعدم، سعيداً منتشياً.

(يولف سائق الباص المذيع، يغيّر عدة محطات، ثم يتوقف عند أغنية. يخبط هو على ركبتي بحماسة). ها هي! ها هي! على المذيع. اسمع. (لحظات. تغرورق عيناه بالدموع، يحرك رأسه مع الموسيقى حركات بسيطة، فيها كل وقار من هو في عمره. يحرك رأسه بأسى، ويتنفس الصعداء).